المرأة الحنانة

أوصى أعرابى ابنه ذات يوم فقال: يـا بنـى أحـذر مـن النسـاء سـتا: المـرأة الحنانة والمرأة المنانة والمرأة الأنانة والحداقة والبراقة والشاقة.

ترى لِمَ حذر الأب الحكيم ولده أن ينكح امرأة من هـؤلاء السـت؟ ومـن هـن هؤلاء؟ وما هى سماتهن؟

المرأة الحنانة هى امرأة لا تملك القدرة على أن تفكر وتدرك وتشـعر وتحـس وتنزع وتسلك كما تصنـع المـرأة المسـلمة السـوية المؤمنـة بربـها، والمتبعـة لسـنة رسولها، والمتحكمة فى انفعالاتها، لأن أفظع من تشويه جمال الوجـه والجسـد هو تشويه جمال الروح والنفس والإرادة.

إن سلوك المرأة وكلامها وحركاتها وخواطرهـا فـى حاجـة دومًـا إلى تجميـل وصقل أكثر بكثير من بحثها الدءوب عن مساحيق الجمـال لـتزين وجـهًا جملـه الله وأحسن خلقته بغير تدخل صناعى "صنع الله الذى أتقن كل شئ"..

وليت كل النسوة يسعين إلى القراءة والتفكر والتذكر ومراجعة تصرفاتهن على إزالة كل آثار العدوان لهذا السلوك فى أنفس الذين يحيطون بـها ويتـألمون ممـا تصنع.

المرأة الحنانة هى امرأة توقف نموها النفسى عند مرحلة الطفولة، ولم يقطع الحبل السرى المعنوى بعد الذى كان يربطها بأمها (أو زوجها الأول السابق)..

فجسدها فى مكان وعقلها فى مكان آخر ..سواء أكان هـذا المكـان هـو بيـت أهلها القديم، أو بيت زوجها الأول، أو بيت من تشعر معـهم بـالأمن والحمايـة والدفء والرعاية ..وتقـارن دومًـا بـين معاملـة زوجـها وقدرتـه الماديـة ومعاملـة وقدرات أولئك الذين كانت فى كنفهم وحمايتهم ..هى دومًا تنظر للوراء ..تحن للأمس ولا تعيش اليوم ولا ترى المستقبل.

إن الطفل حين يُهدد فى أمنه ..ويُفرغ فى لعبه ..ويُعاقب على تصرفه السيئ، لا يلبث أن يصرخ ويبكى ويصيح أمى، أريد أمى ..أريد أمى، أو أريد أبى بقدر تعلقه بأحدهما أو بكليهما.

ويتكرر نفس الأسلوب بتكرار الحدث الذى يؤلم الطفل ويضايقه، وكأن هناك أسطوانة استغاثة تعيد نفس الكلمات وتكررها بغير إضافة أو حذف أو كلل.

ولكن استغاثة الطفل وهلعه وفزعه إلى أبيه وأمه وأخيه الأكبر فى أى ملمة تلم به يتناسب هذا الأسلوب والتصرف مع عمره الزمنى والعقلى فى مرحلة الطفولة التى يمر بها ..وأيضًا كلما عُرض عليه شيء ليتقبله أو يرفضه فإنه يتردد ليعرض الأمر على ولى الأمر ..ولا نستطيع أن نذم هذه الطريقة التى يهتدى بها الطفل نحو الأشياء المحببة إليه أو البغيضة إلى نفسه ..لأنها مرحلة أولية فى طريق حياته تتبعها مرحلة النضج والاتزان الانفعالى ليعى المرء حينئذ متى يقبل أو يرفض؟ ..وكيف ولم يدن من شيء أو يرن إليه؟ ..وليعلم الفتى والفتاة حين يكبران فى العمر ويتزوجان ويصبحان مسئولين عن بيت وحياة يشارك كل منهما الآخر ..كيف يتحمل الواحد مسئوليته الكاملة تجاه زوجه وبيته، من أجل أن ينمو الحب والود فى البيت المسلم، وتشع منه رائحة الاتفاق والانسجام والسعادة، وتهدأ النفوس وتستريح الأجساد والأرواح المنهكة فى صراع الحياة..

ودومًا يحتاج كل من الرجل والمرأة ألى نضج ووعى عميق لقواعد وفن التعامل مع الناس ومع الأزواج للقضاء على داء أو فتنة تضرب بأطنابها فى أرض الزوجية..

إن المرأة الحنانة جاهلة بهذا الفن ..بعيدة عن هذا الوعى ..غريبة عن مفهوم النضج ..إذا طرح عليها سؤال لم تتوقعه ..أو طلب منها اتخاذ موقف حيال قضية صغيرة أو كبيرة تخص الزوجين فقط، عجزت أن تدلى بدلوها أو تُسمع صوتها، أو تُعلن رأيها المعبر عن فهم لمضامين الحياة وكيفية الاختيار

بين عدة مفاضلات ..وتصمت ولكن إلى حين حتى تشاور أباها أو أمها أو أخاها الكبير، ثم تعود لتقول ما قالوه دون أن يكون لها هى رأى خاص ..فهى كالتابع الأمين لمتبوعه، أو كالببغاء الذى يكرر ما سمعه دون وعى لما يقال ..**أو كالحمار يحمل أسفارًا** ..فهى جسد بلا رأس ورأس بلا عقل ..وعقل بلا فكر ..وفكر بلا إرادة..

إنها تحن لعطف الأب والأم والجد والجدة والعم والعمة والخال والخالة ..هى ترفض أن تكبر وتتخذ موقفًا حيال أى مشكلة إلا إذا كان هذا الموقف نابعًا من رأى جبهة الشورى والحل والعقد خارج بيت الزوجية ..ولتوضيح هذا المعنى نضرب بعض الأمثلة:

عرض زوج على زوجته أن يشترى ثلاجة جديدة فى منزل الزوجية أكبر حجمًا وأكثر نفعًا ..فى البيت ..وأن يبيع الثلاجة القديمة ويزيد على الثمن المقبوض ليتسنى لهما شراء الثلاجة وقبلت الزوجة فى أول الأمر، ولكنها سرعان ما ترددت وذهبت إلى أمها لتعود معلنة له قبول بشروط ..الثلاجة الجديدة فعلاً مفيدة ولكن تصبح الفاتورة باسمى لا باسمك!! ..الثلاجة القديمة لا تباع بل نعطيها لأمى لأنه ليس عندنا مكان يسمح لثلاجتين بالوجود وأمى تريدها ..وإذا كانت نفسك تسمح بأخذ نقود مقابل ذلك فخذ ..ولكن الثلاجة لا تساوى إلا كذا ..وضربت رقمًا بخسًا لها ..وبالطبع رفض الزوج وقال لِمَ تغير رأيك اليوم عن الأمس؟ ..أنا أعرف السبب ..إنه أمك ..فصاحت فى وجهه: ومالها أمى؟ ..هى أعظم النساء وأعظم من أمك وهى تحرص على مصلحتنا ..ولكننى لا أدرى لِمَ تكره أمى كل هذه الكراهية بغير سبب؟!..

مثال آخر: تزوج رجل من امرأة ووافق أول الأمر على أن تعمل فى وظيفة جيدة براتب جيد ليتعاون الاثنان فى شراء ما يحتاجانه فى بيت الزوجية .. وحينما توج الله هذا الزواج بابنة اقترحت الزوجة أن تتجه كل يوم إلى بيت أمها لتضع ابنتها الوحيدة هناك قبل ذهابها إلى العمل، ثم فى عودتها تمر على أمها لتأخذ ابنتها، وبهذا يتحقق هدفان: الأول رؤية الأم والجلوس معها بعض

الوقت كل يوم صباحًا وظهرًا ..والهدف الثانى توفير النقود التى كانت الحضانة ستأخذها مقابل تلك الخدمة ..وقد ترتب على عمل الزوجة وذهابها إلى بيت أمها زيادة فى التقصير فى أداء المهمات النسوية التى تتعلق بنظافة البيت وإعداد الطعام ..والإشراف على مأكل وصحة الصغار ..فطلب الزوج من زوجته الجلوس فى البيت والتفرغ له ..وبالتالى عليها أن تقدم طلبًا بالاستقالة من الوظيفة أو إجازة بدون راتب ..ووافقت الزوجة أول الأمر بهدوء حينما كان الأمر مقصورا على الاثنين ..ولما عَلِمَ والد الزوجة ووالدتها رفضا بشدة وأقنعا الزوجة بحجة أن التنازل الأول يعنى التنازل الأخير ..وسبب آخر أنها قد تعلمت وحصلت على شهادة جامعية لماذا؟ أليس ليكون معها سلاح تشهره وقت المعارك والصدام؟ ...أليس لتحصل على راتب يماثل راتب زوجها وبالتالى تتحرر من سيطرة الرجل القديمة (الاقتصادية المنشأ) ... ولتعتلى هى عرش الرجل الذى هبط منه مختارًا أو مجبرًا على حد سواء ..لقد تعلمت المرأة وحصلت على الإجازة الدراسية لتتحرر من قيد الرجل وخدمته للتفرغ لخدمة المجتمع ..وكأن قدرها أن تخدم وتكون راعية إما بداخل البيت (الزوج والأولاد) أو خارج البيت (أفراد المجتمع مهما كانت مسمياتهم)، تعددت الوظائف والخادمة واحدة ..واقتنعت الزوجة برأى والديها اللذين ربياها على ألا تأخذ قرارًا مصيريًا يخصها دون الرجوع إليهما ..لأنها مازالت صغيرة لا تعى حقائق الأشياء ..وأفهماها كذلك أنه لا أمان للرجل مهما طالت العشرة ..فالرجال كالغربال لا يستقر معهم ماء أو شيء غلت قيمته ..وكانت النتيجة أن صارت الزوجة تتجاذبها قوتان ..الأولى رأى الزوج ..والثانية رأى الوالد والوالدة ..وهى لا تعرف مع أى فريق هى؟ ..إلا أنها كانت مازالت مرتبطة بحبل سرى خفى لا تراه العيون ..بل تراه البصائر، مع أهلها فوقفت إلى جانبهم حتى انتهى الأمر بالطلاق والفراق ..وتقوض أركان بيت قد شيد ..وتفككت عرى أسرة قد كُونت ..ليس لسبب كبير ..ولكن بسبب أن الزوجة لم تنضج بعد ..ولم تطعم بالتطعيم الثلاثى (الدين والعقل والإرادة) ..فى

طفولتها أو مراهقتها لتصبح لديها المناعة ضد الانهيارات العصبية والجنون والكفر والإمعية .. وغدًا البيت العامر خربًا ..وأصبحت الزوجة امرأة مطلقة ..وفقد الأبناء الأمن والسلامة ..والدفء الأسرى ..لأن أمهم مازالت طفلة فى فكرها تحن إلى صدر أهلها.

المرأة الحنانة هى ضحية تربية خاطئة وتوجيه نفسى عطن يتلف فى المرأة كل برعم إرادة يريد أن يخرج ثمرة أو عملاً مفيدًا ..ولكن السعيد من اتعظ بغيره ..والشقى من اتعظ به غيره.

وقد يعرض الخاطب على مخطوبته فكرة ..أو يعرض العريس على عروسه اقتراحًا بأن يكون الزفاف فى مكان معين فتوافقه أول الأمر ..ولكن إذا اعترضت أمها اعترضت العروس وطلبت من العريس من أجل خاطرها أن يتنازل عن رأيه ويريح أمها ..ولكن للأسف لعلها بداية فى مسلسل التنازل الأبدى ..حتى أن مكان غرف النوم، والجلوس، ونوعية الطعام، ومواعيد الزيارات، وأماكن التنزهات، ونوع الأثاث، قد تحددها أم تلك المرأة الحنانة ..لأنها بقدر ما تستبد وتتسلط بقدر ما تتنازل ابنتها وتذوب شخصيتها وتتضاءل.

ويروى أن امرأة مسلمة استأذنت زوجها فى زيارة أبيها فمنعها ..فعلمت أنه مريض فاستأذنت مرة أخرى فرفض زوجها أيضًا ..فعلمت أنه مات فاستأذنت ثالثة فرفض الزوج كذلك ذهابها إلى بيت أبيها المتوفى ..فذهبت لتشكو إلى رسول الله ذلك الأمر وهذا التصرف الذى كان من زوجها تجاه صلتها للرحم ..وخصوصًا مع أبيها لما له من فضل عليها ..فبين رسول الله ﷺ أن الله قد غفر لأبيها بسبب طاعتها لزوجها ..وهنا نستنتج أن من حق الزوج أن يحدد للزوجة موعد زيارتها لأهلها فى الوقت الذى يشاء ..لا فى الوقت الذى تريد هى أو يريد أهلها.

إن طاعة الزوج واجبة لامناص منها ..ولا حياد عنها مهما كانت الأسباب أو المبررات التى تدعو إلى مخالفتها بالمعصية ..ما لم يكن هناك أمر بأثم أو

بمعصية الله سبحانه وتعالى أو للرسول ﷺ ، وبين الرسول ﷺ أن أعظم الناس حقًا على المرأة ليس أبوها ولا أمها ولا أهلها ولكنه زوجها ..بينما أعظم الناس حقًا على الرجل أمه وليست زوجته.

ويقول الرسول الكريم ﷺ **(لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها)** رواه الترمذى.

وتقول السيدة عائشة رضوان الله عليها: "يا معشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمى زوجها بخد وجهها. (رواه الترمذى)

وبين الرسول ﷺ أن المرأة لو خرجت بدون علم زوجها ..أو رغم عدم موافقته حتى ولو كان لزيارة أهلها فإنها فى سخط الله تعالى: فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: رأيت امرأة أتت إلى النبى ﷺ وقالت: يا رسول الله، ما حق الزوج على زوجته؟ قال" "حقه عليها أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنها الله وملائكة الرحمة، وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع"[1].

ويقول رسول الله عليه الصلاة والسلام **(ونسائكم من أهل الجنة الودود العئود على زوجها التى إذا غضبت جاءت حتى تضع يدها فى يد زوجها وتقول: لا أذوق غمضًا حتى ترضى)** أخرجه النسائى وأبو نعيم. إلى هذا الحد ..إلى هذه الدرجة ..إلى هذه القمة تبلغ أهمية طاعة الزوج وعدم عصيانه .. لأن طاعة الزوج - ما لم يكن هناك إثم أو معصية لله - طاعة للرب ودخول الجنة والبعد عن النار ..كذلك كلما ضاقت المسافة بين عقل الزوج وعقل الزوجة وكلما اتفقت التصورات والتأمت الأحاسيس، واتحدت المشاعر، كان ذلك أشبه بالصخرة القوية التى يشيد عليها البيت المسلم ..وكلما ازداد التنافر وبذر الشقاق بذوره فى أرض الزوجية، وضرب البغض بمعوله فى أعمدة الوفاق بين الزوجين، تهدمت أركان الأسرة وزلزل كيانها وتقوضت دعائمها..

---

(١) انظر المهذب للشيرازى جـ ٢ صـ ٦٦

إن المرأة الحنانة هى فى حقيقة كيانها جانية ومجنى عليها ..مجنى عليها من أهلها الذين سعوا إلى فطامها الجسدى حين بلغت الثانية من عمرها ..وأبوا إلا أن تظل مربوطة بحبل سرى خفى مع أمها وأبيها وأن تظل حبيسة الثديين، ترتشف منهما كلما طرأ عليها موقف جديد ..أو أحست بآلام الجوع العاطفى أو الفكرى ..وهى كذلك جانية على زوجها وأولادها بما تجلبه عليهم من نكد وهم ..وبما تسلبهم من إحساس بالسعادة ..وبما تزرعه فى نفوسهم من حيرة وقلق من المستقبل ..وقد تكون بسلوكها هذا دافعة لزوجها إلى رفض الواقع والتفكير فى الطلاق، وأن يهدم البيت الذى شيد من أعوام، وأن يتلف الزرع الذى مازال فى حاجة إلى الرعاية والاهتمام ..وأن يترك صغاره وهم مازالوا أفراخًا لترعاهم القطط والحدأة والثعالب.

إن من أجمل ما يهدى للمرأة فى ليلة زفافها هو وعظها بالسمع والطاعة لزوجها ..وأن تجتهد فى أن تكون نعم الزوجة ونعم الأم ..وأن تستقل فى حياتها مع زوجها استقلالاً تامًا لا عبودية فيه لأحد، ولا ردة فيه ولا نكوص لعالم الطفولة الأول ..وكما انتقلت العروس بجسدها بعيدًا عن بيت أهلها ينبغى أن تنتقل معها مشاعرها وأحاسيسها وأن يقطع كل حبل سرى مع الابنة بأمها وأبيها ..وأن تترك فى تلك المرحلة لتعيش تلك المتغيرات المطروحة وكل الصعاب التى ستقابلها بعقل ناضج وبوجدان نابض ..وكل يوم يمر عليها يصقلها ويضع على كاهلها القوة والإرادة لتكون زادًا لها فى رحلة الحياة.